

مدخل إلى فلسفة التاريخ (*)

(مرسياً إلياد)

مراجعة تركي الربيعو

يقول إلياد في مقدمة كتابه هذه، والذي يمثل واحداً من مجموعة من الكتب المتميزة التي ألفها إلياد ونقلت إلى العربية في أواخر العقد المنصرم وأوائل هذا العقد. يقول كان من الممكن أن يكون عنوان الكتاب مدخل إلى فلسفة التاريخ، لكننا أثرنا «أسطورة العود الأبدي»، وذلك لسبب مهم ويتمثل في كون المجتمعات التقليدية هي مجتمعات مضادة للتاريخ ورافضة له وهذا الرفض يأخذ شكل سمة أساسية تتجلى في رفض الزمن الحسي التاريخي والعودة دورياً إلى زمن الأصول الميثيقية Mythical، إلى الزمن الكبير. ففي هذا الرفض للزمن التاريخي قيمة ميتافيزيقية معينة للوجود البشري، لكن هذه القيمة ليست أبداً بالقيمة التي تحاول بعض التيارات الفلسفية التي جاءت بعد هيجل أن تضيفها عليه، ولاسيما الماركسية والفلسفة التاريخية والوجودية منذ اكتشاف الإنسان التاريخي، أعني - والقول لإلياد - الإنسان الذي يكون كذلك بمقدار ما يضع نفسه في قلب التاريخ.

يتألف الكتاب من أربعة فصول.

الفصل الأول بعنوان: النماذج والتكرار (المشكلة)

يرى إلياد أن الإنسان البدائي والإنسان القديم لا يعرف مسلكاً واعياً أو فعلاً

(*) مراجعة للكتاب «أسطورة العود الأبدي» تأليف مرسيا إلياد، ترجمة نهاد خياطة، (دمشق، دار

معيناً دون أن يكون قد سبقه آخرون في فعله، إن حياته تكرر لبوادر ابتدراها آخرون قبله، بوادر تستمد هويتها وحقيقتها من حقيقة مفارقة ومتعالية أن ذلك كل فعل عنده هو إعادة لفعل بدئي. وعبر هذا يوجه إلياد وجهه لفهم الآلية (الكيفية) التي يصبح بموجبها كل فعل وسلوك في نظر إنسان المجتمعات القديمة سلوكاً حقيقياً. يقول إلياد «ما يهمنا قبل كل شيء أن نفهم هذه الآلية حتى نستطيع بعد ذلك أن نتصدى لمشكلة الوجود الإنساني والتاريخ في أفق الروحية القديمة» (ص 20).

يرى إلياد - على سبيل المثال - أن جميع المدن القديمة بنيت اقتداءً بنموذج سماوي مقدس (نموذج ميطيقي للمدينة السماوية). من لكش المدينة السومرية حيث رأى الملك غوديا في حلمه الإلهة (ندابا) التي أظهرت له نموذج الهيكل الذي عليه أن يبنيه إلى جميع المدن البابلية وحتى أورشليم المقدسة التي ألهبت الوحي عند جميع أنبياء العبرانيين - فقد اختطف الإله النبي حزقيال في رؤية وحمله إلى جبل شاهق ليريه مدينة أورشليم المقدسة، وهذه هي حال جميع المدن من سومر إلى الهند. فالإنسان القديم يبني طبقاً لنموذج مقدس سماوي وهذه النماذج لا تقتصر على المدينة وحسب بل تشمل كل إقليم يسكنه الإنسان القديم وما فيه من أنهار تروي أراضيه وحقول تمده بالغذاء، «إن الحقيقي عند الإنسان القديم هو المقدس، لأن المقدس وحده هو الكائن بإطلاق، الفاعل بصورة مؤثرة، وخالق الأشياء الذي يهبها الديمومة» (ص 30).

الجبال هي الأخرى ترتدي طابعاً مقدساً في الثقافات القديمة، فهي الصلة بين السماء والأرض، وقمة الجبل ليست أعلى نقطة على سطح الأرض وحسب، بل هي سرّة الأرض التي بدأ فيها الخلق وعبر هذا كانت الزقورة (البناء العالي ذو الطابع الديني في أرض العراق القديم) جبلاً كونياً، صورة رمزية للكون، وقمة الجبل هي المكان المقدس والطريق إليه شاق وطويل على الحاج أن يقطعه لأنه في الحقيقة عبور من الدنيوي إلى المقدس، من الزائل الوهمي إلى الحقيقي والأبدي، من الموت إلى الحياة (ص 40).

ومن وجهة نظر إلياد أن كل طقس قديم له مثال إلهي ونموذج أصلي، من

الختان إلى الزواج. إن طقوس الزواج تحتذي أيضاً نموذجاً إلهياً، وزواج الإنسان هو إعادة للزواج المقدس، وعلى الوجه الأخص، الاتحاد بين السماء والأرض، ويتعداه إلى أن الزواج ليس تقليداً مثالياً وحسب، بل هو عملية خلق كوني. إن حفلات الجنس وكذلك الزواج، كانت تشكل طقوساً تحاكي بوادر إلهية أو أقاصيص معينة من دراما الكون المقدسة» (ص 56).

ما يستنتجه المؤلف من الأنطولوجيا القديمة أنها تهدف من وراء التكرار والعودة إلى النموذج البدئي، إلى إلغاء الزمن. يقول إلباد: «بمقدار ما يكتسب فعل (أو شيء) حقيقة معينة بواسطة تكرار البوادر النموذجية، وبهذه الوساطة وحدها، يكون ثمة إلغاء ضمنى للزمن الدنيوي وللتاريخ، ومن يكرر البادرة النموذجية يجد نفسه محمولاً إلى الزمن الميظيقي الذي تم فيه الكشف عن هذه البادرة النموذجية، لأول مرة» (ص 72).

الفصل الثاني: تجديد الزمن

ينقلنا المؤلف في هذا الفصل إلى بانوراما من الاحتفالات والعادات لدى العديد من الشعوب التي تحتفل برأس السنة، من البابليين إلى الحثيين إلى مجاهل إفريقيا. فالاحتفالات بالسنة الجديدة لا تهدف إلى قطع الزمن، أي إيقافاً فعلياً لفترة زمنية وبداية لفترة أخرى وحسب، وإنما تشهد أيضاً وصلاً للسنة الماضية وللزمن المنصرم وهذا، من جهة ثانية، هو معنى التطهيرات القدسية: حرق ومحو للخطايا والذنوب التي اقترفها الفرد والجماعة في مجموعهما، لا مجرد تطهير. إن التجديد هنا معناه الولادة الجديدة (ص 103).

والمؤلف يجد نموذجاً في عيد أكيو البابلي، فهو يتضمن سلسلة من العناصر الدرامية التي تهدف إلى إلغاء الزمن الماضي وإقامة العماء البدئي وتكرار فعل ولادة الكون (هيمنة الفوضى، تمثيل خلق العالم، تمثيل الصراع على يد الإنسان، تقرير مصير العالم، الزواج المقدس) هكذا تنطوي الاحتفالات على عنصرين أساسيين الأول تمثيل حالة العماء البدئي الأول، والثاني تمثيل عملية الخلق الجديد للعالم.

خلق العالم يعاد كل عام ويكرر، وفي هذا التكرار بداية لعهد جديد «يسمح بعودة الأموات إلى الحياة ويداعب أمل المؤمنين بقيامة الجسد» (ص 116). والاحتفال بالخلق، برأس السنة الجديدة، بدورية الخلق وتكراره هو محاولة لإلغاء الزمن الحسي. فالإنسان البدئي، البدائي، التقليدي يتحدد انطلاقاً من عدة أمور. فهو يرفض أن يقبل نفسه كائناً تاريخياً، ويرفض أن يمنح الذاكرة قيمة، وفي رفضه للحوادث غير العادية والتي ليس لها نموذج مثالي فإنما يرفض أن يعيش في إطار الزمان الحسي في وقعه وواقعه.

الفصل الثالث: الشقاء والتاريخ - طبيعة الألم:

التاريخ كتتابع للحوادث، حوادث لا تقبل الرجوع ولا يمكن التنبؤ بها وذات قيمة مستقلة، يظل مرفوضاً من قبل الإنسان التقليدي. وهذا الرفض يجد تعبيره في تكراره المستمر للنموذج البدئي والمتعالي. إن الإنسان القديم يعيش وفقاً كما يقول إلياد لنماذج تفوق الشرط البشري (ص 168). ويضيف إلياد بقوله: «أن يعيش المرء طبقاً للنماذج البدئية معناه أن يحترم الشريعة، ما دامت الشريعة ليست غير تجل إلهي أولي، وكشف في الزمن البدئي عن قواعد الوجود التي استتتها الألوهة أو كائن ميطيقي» (ص 168).

ما من كارثة طبيعية (جفاف، طوفان، دمار) إلا ولها تفسيرها ومسوغها على نحو أو آخر، في قوة مفارقة، وما من كارثة عسكرية في تاريخ هذه الشعوب إلا وتجد مسوغاتها في قوة مفارقة، إما أن يكون ثمة خطأ طقسي ارتكبه الجماعة بأسرها بحق إلهها وحاميها (تقصيرها في إداء واجباتها الدينية) وإما أن يكون في الأمر سحر أو عفريت وفي كل الأحوال يصبح تقبل الألم أمراً محتملاً ومقبولاً.

إن الكوارث والفيضانات هي غضب من الله وآية بأن واحد. فالإله يتدخل في التاريخ ويصوغه على هواه والأمثلة كثيرة. وهذا التدخل يكسب الحوادث معنى وقيمة بمقدار ما تحددها إرادة الله. إذ لم يعد هذا الإله - ويقصد به إله الشعب اليهودي - مجرد إله مشرق خالق للحركات النموذجية البدئية، بل أصبح شخصية ما ينفك يتدخل في التاريخ ويكشف عن إرادته من خلال الحوادث. بذلك تصبح مواقف التاريخ مواقف إنسانية بإزاء الله، وهي بهذه الصفة تكتسب قوة دينية ما كان

لشيء أن يؤكد لها حتى حينئذ. التاريخ تجلُّ إلهيَّ بكل أحداثه، هذا ما تراه النخبة الدينية التي تريد أن تدخل الناس إلى الجنة، إلى دين يهوه، أما الطبقات الشعبية فهي من وجهة نظر إلياد تميل إلى عبادة البعليم والعشروت، إنه الحنين إلى النموذج البدئي وهو أقرب إلى العزاء وأدعى، بل إلى الراحة، أن يظل المرء يشكو من حظ (سحر، عفريت... الخ) أو من غفلة (هنة طقسية... الخ) يسهل إصلاحها بتقريب قربان، وعبر هذا كانت الأكثرية المسيحية ترفض التاريخ كما يرى إلياد وتحترس منه.

الفصل الرابع: الخوف من التاريخ. بقاء أسطورة العود الأبدي:

في هذا الفصل يناقش إلياد المصاعب التي تواجه المدرسة التاريخية. وفي مناقشته يميز إلياد بين الإنسان القديم الذي يتحصن ضد التاريخ، يقف منه موقفاً سلبياً، يتوحد بالنموذج البدئي ويلغي الزمن بإكسابه للحوادث التاريخية معنى بعد تاريخي. وبين الإنسان الحديث والذي يضيف على وجوده معنى جديداً. إنه يعرف نفسه ويريد لنفسه أن يكون صانعاً للتاريخ. ابتداءً من القرن السابع عشر بدت الغلبة واضحةً للاتجاه المستقيم على الاتجاه الدائري للتاريخ. يقول إلياد: «وكان لا بد من انتظار هذا القرن، الذي نحن فيه، حتى نرى بوادر رجوعات جديدة معينة على الخطية التطورية، وعودة معينة إلى الاهتمام بنظرية الأدوار» (ص 249)، بعد أن سادت في القرن التاسع عشر الأفكار التطورية والتي كانت بمثابة الذروة لأفكار تبشر بتقدم ليس له نهاية. يقول إلياد: «إن لعودة النظريات الدائرية إلى الظهور في الفكر المعاصر دلالة غنية بالمعنى، وبما أننا غير مختصين أبداً للحكم على مدى صحتها، نقتصر على ملاحظة أن صياغة أسطورة قديمة بلغة حديثة يشي على الأقل برغبة تسعى إلى إيجاد معنى ومسوغ ما بعد - تاريخي للحوادث التاريخية» (ص 252). ويضيف إلياد قوله: «منذ هيغل انصرفت الجهود إلى إنقاذ الحدث التاريخي، وإعطائه قيمة بما هو كذلك، الحدث التاريخي بنفسه ولنفسه، لكن في فلسفة هيغل جانباً يهمننا، الجانب الذي لم يزل يحتفظ بشيء من المفهوم اليهودي المسيحي، عند هيغل، الحدث التاريخي تجلُّ للروح العالمي، هنا، يمكننا أن نستشف موازاة بين فلسفة التاريخ عند هيغل وبين لاهوت التاريخ عند أنبياء العبرانيين، فقد كان الحدث التاريخي عند

هؤلاء، مثلما هو عند هيغل، غير قابل للارتداد، وصحيحاً بذاته بما هو تجلٍ لإرادة الله. وهكذا يظل قدر شعب ما، بحسب هيغل، يحتفظ بمعنى بعد - تاريخي بما أن كل تاريخ يكشف عن تجلٍ جديد للروح الكوني أو العالمي أكمل كمالاً من سابقة» (ص 252 - 254).

على صعيد الماركسية كمدرسة للفكر التاريخاني، يرى إلياد أن الماركسية احتفظت لنفسها بمعنى للتاريخ، ليست الحوادث عندها تعاقباً من مصادفات اعتباطية، بل هي تنبئنا ببنية مترابطة تفضي إلى غاية محددة: القضاء النهائي على الخوف من التاريخ، «السلام». ونجد في اصطلاح الفلسفة الماركسية أيضاً «العصر الذهبي الذي تتحدث عنه الإسكاتولوجيات القديمة. بهذا المعنى، يصح القول أن ماركس لم يقتصر على جعل فلسفة هيغل تقف بقدميها على الأرض، بل عمد أيضاً إلى إعادة تقويم أسطورة العصر الذهبي البدائية، على مستوى بشري حصراً، مع فرق واحد هو أنه وضع العصر الذهبي حصراً في نهاية التاريخ بدلاً من أن يضعه أيضاً في البداية» (ص 255).

يتساءل إلياد كيف يستطيع الإنسان أن يتحمل الكوارث والرعب الذي يحفل به التاريخ - بدءاً من الهجرات القسرية والمذابح الجماعية وانتهاءً بالقصف النووي - إذا لم يترك له وراء هذا، أن يتلمس علامة أو غاية بعد - تاريخية، وإذا كانت هذه العلامة أو الغاية ليست غير لعبة عمياء تؤديها قوى اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو - ما هو أسوأ - ليست غير ناتج حريات تفوز بها أقلية وتمارسها مباشرة على مسرح التاريخ العالمي.

لقد كانت الكوارث وعذابات التاريخ مقبولة في الماضي لأنها تكتسب معنى بعد - تاريخي، فليس للتاريخ قيمة بحد ذاته كما تراه المدارس التاريخية. إن كل صراع هو صراع بين الخير والشر، وكل ظلم اجتماعي جديد كان يتوحد مع آلام المخلص، وبفضل هذه النظرة استطاعت شعوب كثيرة أن تتحمل مصاعب التاريخ وكوارثه. يقول إلياد «لم يقنطوا ولم ينتحروا، ولم يسقطوا في الجفاف الروحي الذي يصاحبه دائماً رؤية للتاريخ نسبية أو عدمية» (ص 260).

إن تبجححات الإنسان المعاصر، على حد تعبير إلياد والتي تجد تعبيرها في القول أنه صانع للتاريخ بحريته هي تبجححات وهمية، وإن حرية صنع التاريخ هي حرية وهمية بالنسبة إلى مجموع النوع البشري كله تقريباً. إن الإنسان التقليدي كان يستطيع التفاخر بحريته «فهو حر بأن يكون أكثر مما كان، حر بإلغاء «تاريخه» الخاص عن طريق إلغاء دوري للزواج والولادة الجديدة للجماعة» (ص 269).

يختتم إلياد كتابه بالقول إن المدارس التاريخية تجد نفسها في مأزق وكذلك الإنسان التاريخي. ولذلك فهي تستعير دوافع التعبير عن نفسها من الإسكاتولوجيات القديمة وبذلك تمهد إلى عودة أسطورة العود الأبدي.